
اسم المقال: علاقة المجتمع العربي بالموت والموتى في العصر الوسيط من خلال كتاب (المقابر والمشاهد بجانب مدينة السلام)
اسم الكاتب: محمد صلاح بوشئلة
رابط ثابت: <https://political-encyclopedia.org/library/9092>
تاريخ الاسترداد: 2026/06/07 08:24 +03

الموسوعة السياسية هي مبادرة أكاديمية غير هادفة للربح، تساعد الباحثين والطلاب على الوصول واستخدام وبناء مجموعات أوسع من المحتوى العلمي العربي في مجال علم السياسة واستخدامها في الأرشيف الرقمي الموثوق به لإغناء المحتوى العربي على الإنترنت. لمزيد من المعلومات حول الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political، يرجى التواصل على info@political-encyclopedia.org

استخدامكم لأرشيف مكتبة الموسوعة السياسية - Encyclopedia Political يعني موافقتك على شروط وأحكام الاستخدام المتاحة على الموقع <https://political-encyclopedia.org/terms-of-use>



جامعة الشارقة
UNIVERSITY OF SHARJAH

مجلة جامعة الشارقة

مجلة علمية محكمة

للعالم
الإنسانية
والاجتماعية

عدد B



المجلد 17، العدد 2

ربيع الثاني 1442 هـ / ديسمبر 2020م

التقييم الدولي المعياري للدوريات 1996-2339

علاقة المجتمع العربي بالموت والموتى في العصر الوسيط من خلال كتاب

«المقابر والمشاهد بجانب مدينة السلام»⁽¹⁾

محمد صلاح بوشئلة⁽²⁾

تاريخ القبول: 2018-12-20

تاريخ الاستلام: 2018-07-07

ملخص البحث:

المقابر والمشاهد في تاريخنا القديم، وليس في تاريخ بغداد فقط، بل وحتى الخرابات التي بقيت من بعضها، قد تشكل الأيقونة الأهم؛ لفهم مراحل تاريخية، كما للإحاطة بالذهنيات، وكذا لفهم نشأة تقاليد دينية واجتماعية ما تزال حاضرة إلى اليوم، فالمقابر والمراقد والمزارات، في مجتمع يُكبر من شأن الأموات في الوقت الذي يهاب الموت، هي مآثر تقف موقف الشاهدة عند المؤرخ، توجهه وتمده بالكثير من الفرضيات، وتؤكد ما قد يتوصل إليه، فحينما يجد المرء في الأرض الخلاء أطلالاً كثيرة، فإنه يستنتج أن البلاد كانت معمورة في الماضي، أما إذا لم ير شيئاً من ذلك، فلا يستطيع أن يصل إلى أي نتيجة، إذ الواقعة تقع ففتجسد في شاهدة، وحينما يعثر المؤرخ على الشاهدة فإنه يستحضر حتما الواقعة، منها يستوحي تساؤلاته، ومنها يبحث عن شواهد جديدة قد تُعينه على الإحاطة بأخبار الحادثة. وتبقى المقابر والأضرحة وكتب المناقب مصدراً مهماً لأي عملية تاريخية لما كان، بل ولفهم الحاضر.

إن كتاب المشاهد بجانب مدينة السلام لعلي بن أنجب ليس لوحة تصور لنا حياة الإنسان البغدادي فقط، وإنما تنقل، وبشكل دقيق، اعتلاجات المعيش اليومي للمجتمع العربي في العصور الوسطى من خلال علاقته بالموت والموتى وبمراقدهم، إذ لا يتعلق الأمر بحكايا بسيطة، وإنما بمعيش يومي يُخفي هواجس ومشاعر وثقافة يستحق معها كتاب ابن أنجب أكثر من وقفة، وأكثر من قراءة بزوايا نظر متعددة.

الكلمات الدالة: الموت، المقابر، بغداد، الجنائز.

(1) لـ علي بن أنجب الساعى (ت 674 هـ)، المشاهد بجانب مدينة السلام ومواقع قبور الخلفاء أئمة الإسلام، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنينين، و محمد سعيد حنشي، (الرباط: منشورات الخزنة الحسنية، 2008) ط 1.

(2) كلية الآداب والعلوم الإنسانية - جامعة القاضي عياض (مراكش - المغرب)

على سبيل التّقديم:

من منظور الفلسفة الأبيقورية يبقى الموت -في النّهاية- شيئاً لا يستحق الاهتمام، إنه موضوع يجب تهيمشه، وعدم إعارته أيّ أهمية، فما بالك بالاشتغال به، فأمره، بالنّسبة لنا نحن الأحياء، لا يهمننا في شيء، فنحن في كلنا الحالتين التي نكون عليها؛ أي بين حال الموت وحال الحياة، لا ضرورة أمامنا للخوض فيها، والتأثر بها، فنحن إن كنّا في وضع الحياة، فهو لا يعيننا كأحياء أصحاب حركة ونشاط، وإن كنّا في وضع الموت، فهو أيضاً لا يعيننا، لأننا، ببساطة، غير موجودين أصلاً، فحضور الموت لا يتم إلا عند غيابنا التّام، ووجودنا لا يتم إلا عند غيابه التّام عن ساحة وجودنا.

بالنّسبة لحضارتنا يبقى الموت لدى فضاءاتها العمومية المشتركة، شيئاً بالغ الأهمية، ومثار تفاعلات لا تنتهي، لا يمكن تهيمشها؛ إذ يصير للموت مكاناً هو الأهم بيننا، ويصير حيز الفعل، المنسوب بشكل أو بآخر للأموث، الأكثر تأثيراً وفعالية، وهذا ما تؤكده أعداد الأضرحة والمرقد الهائلة في جغرافيا العالم الإسلاميّ الدينيّة، وما ترسخه من جهة أخرى أعداد الزّائرين لهذه المرقد والأضرحة وأعداد المرتبطين بها، وكذا عدد كتب المناقب والطّبقات المخددة لسير من ماتوا، وهذا الموقف من الموت والأموث هو ما يفيض بذكره كتاب المشاهد والمقابر لعلي بن أنجب، بشكل يصير الموت الشّيء الأهم والأكثر أهمية في حياة الإنسان البغدادي، الذي ما هو إلا نموذجٌ يحيل على باقي الأفراد والجماعات المكونة لسوسيولوجيا العالم الإسلاميّ الثقافيّة والدينيّة في العصر الوسيط.

1. المحقق وعالم الأموات:

تحقيق النّصوص عند أحمد شوقي بنينين، وعند كثير من المحققين، عملٌ يرقى إلى مقام إحياء الموتى، أو ربما إلى درجة إبراء الأكمه، ومداواة الأبرص، بإذن الله. كلها أمور معجزة، كما هو تحقيق الكتب المخطوطة أمر معجز، فالتّحقيق وضبط النّصوص القديمة التي نسي ذكرها، أو كاد أن يندثر رسمها، من وجهة نظر ما، يشبهه، وإلى حد بعيد، إحياء العظام وهي رميم؛ ليبقى من جهة ثانية تحقيق الكتاب المخطوط أشد الأعمال ارتباطاً بالموتى، إنه الأكثر تأدّباً تجاه من ماتوا، والأكثر تعبيراً عن فضيلة الاعتراف نحوهم، وإسداء نوع من الانتماء إليهم والارتباط بهم. وقد يتحایل الموتى على الأحياء، وحيل الأموات كثيرة، أكثر من أن تحصى أو تعد، والتي قد يستغل فيها، وبشكل فظيع، الحب الذي يكنه الأحياء لهم، فيسقطون الأحياء في أحبواتهم التي يجعلونهم عبرها في حالة ذين دائم لهم، فمن يموتون يتحايلون على الأحياء إذ يتوارون «تاركين لهؤلاء (من هم على قيد الحياة) مهمة تفسير فكرهم، أي أن يتجادلوا حول ما

قالوه، وما كان ممكناً أن يقولوه، وما كان عليهم أن يقولوه، بل وحول ما لم يقولوه أبداً⁽¹⁾، وكل هذه الأسئلة هي نفسها ما يدور حولها المحقق. أحمد شوقي بنين وبراءة منه، تنظلي عليه، هو الآخر حيل الموتى هذه، فيستيمت في حراسة مذكراتهم العلمية من التلّف والضّياح من جهة، بل ويسهم، ويقسط وافر، في إسقاط المزيد من الأحياء في شَرَك الموتى من جهة أخرى؛ بإنارة مسالك التّعامل مع التّراث المخطوط مرّة، وبالعمل على إخراج النّصوص القديمة مرّة أخرى، وسلّها من بين أنياب النّسيان المُحقّق ومن ثمة إنفاذ وصية أصحابها، وإن لم يكتبوا وصية لأجل العناية بها، وصية عاجلهم الموت قبل كتابتها، أو خجلوا من تركها.

على الرّغم من أن منطق الموت يسعى دوماً، وبكل وسائله المتاحة إلى أن يكفّ الميت عن البوّح، وينهاه عن أي محاولة ممكنة للفعل!، فقانون الموت الذي تتأثر الموت في توكيده هو أن تحرم صاحبها حتى من كشف أسرارها لغير من تأتي لأجل طيّ سجلاتهم الدّنيوية، فيتساءل متعجباً: «عجباً لمن نزل به الموت وعقله معه كيف لا يصفه!»⁽²⁾. فالموت يعرف كيف يُلزم لسان الميت احترام قوانين الأموات؛ ومن ثم الامتناع التّام عن التّكلم وإتمام ما كان قد شرع فيه بالانتميم أو بالإصلاح أو بالمرجعة، فالموت مهمته أن يُخرس الميت عن الحديث إلى جانب الكتابة بالطّبع.

المحقق، وفي ظل هذه الإكراهات التي لحقت بالأموات وحاقت بسيرتهم، يسعى إلى أن يقوم بالنيابة عن الميت/ صاحب الكتاب المخطوط بكل ما كان يود أن يقوم به، لو أنه زيد له في عمره، وتركت له فسحة أمل وعمل، فلموتى أيضاً رغبات لم تُقضى وأمنيات، مع الأسف، لم تُنل⁽³⁾. ولأن لفظ ومكتوب المرء أقرب نسباً منه من ابنه ومن ماله، حتى إنك لـ «تجد فتنة الرّجل بشعره، وفتنته بكلامه وكتبه فوق فتنته بجميع نعمته» كما يؤكد أبو عثمان عمرو بن بحر الجاحظ (ت 255 هـ)، فإن أهم مُنية قد تكون للميت هي نشره مكتباته، في أحل صورة، بالاعتناء المرهف بها، فتكون جهود المحقق جزءاً من مُنية المؤلّف/ الميت، بمحاولات الأول إزاحة سائر الأخطاء التي ارتكبها في حق مؤلّف المؤلّف كل من الزّمن بالإضافة إلى هفوات النّسخ، وإلى جانبها عوامل الطّبيعة التي أتت على روح وجسد الكاتب نفسه، فيجمع النّسخ المتفرقة في مكتبات العالم، ويقارن بينها ليكتشف الأخطاء والتّصحيفات في الهوامش، فيرأب صدع نواقص النّسخ، ويملاً خروم النّسخ الأخرى، في مهمة يوكّلها لنفسه ويلزم نهاره وشطراً صالحاً من ليله بها.

(1) عبد الفتاح كيليطو، آدم أو النّسيان، ضمن لسان آدم، ترجمة عبد الكبير الشّرقاوي، (الدّار البيضاء: دار توبقال، 1995) ص: 45.

(2) محمد الشّيخ، كتاب الحكمة العربيّة، دليل التّراث العربيّ إلى العالمية، (بيروت: الشّبكة العربيّة للأبحاث والنّشر، 2008) ط 1، ص: 569.

(3) لهذا أوصى جعفر بن محمد العباسي عند موته أن يكتب على شاهدة قبره: «حوائج لم تقصّ، وآمال لم تنل، وأنفس ماتت بحسرتها».

من منطلق العطف على الأموات، والبرور بمكانتهم وسابقتهم، والاعتراف بأدوارهم في صناعة الحضارة وصياغة الأفكار الملهمة، فالمحقق غالباً ما تحكمه علاقة صداقة لانهائية بأحد الأموات، صداقة قد تغلب على سائر صداقاته الأخرى، حتى إنها لتنتصر على علاقته بأصحابه من الأحياء، فيُلازم في عمله الدؤوب كتب واحد من الموتى؛ يعالج علل نسخها التي ألحقها بها علل شتى، فيلزمه هو من جهة ثانية اسم ذاك الصاحب القديم، فما إن يحضر اسم عبد السّلام هارون أو شارل بلا إلا ليحضر اسم أبي عثمان عمرو بن بحر، وما إن يأتي على المسمع اسم عثمان يحيى وإبراهيم مذكور إلا ليخطر على البال اسم الحاتمي ابن عربي، وكذا أحمد شوقي بنبيين وصاحبه محمد سعيد حنشي اللذين تحكمهما علاقة الصداقة الوطيدة التي تحكم أغلب المحققين، علاقة من نوع خاص يحكمها أكثر من سبب بابن السّاعي ابن أنجب بن عثمان (593 هـ - 673 هـ) والتي منها البرور بأعلام الأمة. فقد حققا له المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام وكتابه الآخر والمهم الدرّ الثمين في أسماء المصنفين، صداقة قد يفرضها اشتراك المؤلف والمحققين في ذات المهنة، فابن السّاعي، كان هو الآخر قيماً على المكتبة، وذلك كله ضمن خطة أو بالأحرى حكمة شيشرونية قديمة تحكم عمل المحققين تفيد بـ «أن الذي له أمام عينيه صديق حقيقي، إنما له أمام ذاته شيء بمثابة صورته المثالية الخاصة [...] وعندئذ يصبح الغائبون حاضرين، والفقراء أغنياء، والضّعفاء أقوياء [...] وما هو أكثر صعوبة على القول، يصبح الموتى أحياء [...]؛ من كثرة ما يبعث على التقدير والذكريات ومشاعر الأسف على أصدقائهم. وهكذا يبدو أن البعض قد وجدوا السعادة في الموت [...] والبعض الآخر في حياة تستحق الثناء أو التّقرّيب»⁽¹⁾. ولا تثناء ولا تقرّيب تجاه الموتى يشبهه عمل المحققين حينما يوكلون لأنفسهم مهمة إخراج نصوص الموتى في حلل قشبية ودونما أخطاء أو خطايا قد تنكد على الميت هناءة القبر وهدأته.

علاقة أحمد شوقي بنبيين ومحمد سعيد حنشي بصاحبهما تاج الدين ابن السّاعي قد يكون لا دخل للأولين ولا لثانيي بها، وإنما الأمر قد يتعلق ببساطة بأحجوليات القدر وبمكر التاريخ، فالتاريخ كان دوماً لاعباً قديراً جداً في صياغة اللّقاءات التي لا بد منها، فعلى الرّغم من بُعد الأمكنة، وعلى الرّغم من التّفاوتات التي تفرّضها الأزمنة، وعلى الرّغم من الحواجز التي تكون أمام سفر المخطوطات قديماً وحديثاً، فإنها وبحكمة ذات القدر تُسيّر نحو صاحبها الذي سيرفع عنها ظلم الزمن. القدر وحده، وبشيء من السّخرية والمكر الواضحين يعرف لمن يمنح هداياه، فكما منح ابن أنجب حب الكتب وعشق المكتبات. وجعل عالمه هو عالم الكتب والرّفوف، منح المحقّقين ما منحه لابن أنجب، فكلهم تخيلوا الجنّة كأنها مكتبة، يجدون فيها سعادتهم العارمة، بعيداً عن جنون العالم وأسواقه، ليصير كل من ابن أنجب وشوقي بنبيين

(1) نقلا عن جاك دريدا، «سياسات الصّداقة»، ترجمة فتحي المسكيني، مجلة يتفكرون، 2015، ع 6، ص: 91.

خازنين لأهم مكتبات العالم في العصر القديم كما حال ابن أنجب خازن كتب خزنة المدرسة المستنصرية وخازن الكتب بالمدرسة النظامية وهذه الوظيفة السامية لم تكن تسند، في زمنه، إلا للعلماء الكبار وعلية القوم⁽¹⁾، وفي العالم الحديث كما الحال مع محقق كتابي ابن أنجب الذي كان وما يزال أمينا محافظاً للخزانة الحسنية.

لقد اختار الدكتور بنبين والمؤلف ضحبة الكتب، وعيونهم كانت دوماً معلقة إلى الزّوف متطلعة إلى العناوين، لا إلى متاع الدنيا وبهرجتها، الشّغف بالمكتبات كان قدر أطراف العلاقة هذه، ليلتصق اسمها بالكتب ومصنفيها وبفضيلة العناية بها، وكذا حراستها والدّود عنها، القدر وحده، أيضاً، أرسل أحمد شوقي المولع بالمخطوطات القديمة ليحقق نصوص علي بن أنجب، وليوفر له شروط ذلك، فالنسخة الوحيدة من كتاب الدرّ الثمين التي توقفت بها رياح السّفر في الخزنة الحسنية، لتكون بين يدي أحمد شوقي، رغم كونها نسخة تعود إلى قرن المؤلف، القرن الثامن للهجرة، البعيد زمنياً من قرن المحقق فقد كتبت «بخط مشرقّي قديم يظهر منه أنه كتب قريباً من عصر مؤلفه»⁽²⁾.

يكتب محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني صاحب تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب على غلاف كتاب الدرّ «هذا كتاب الدرّ الثمين في أسماء المصنّفين للإمام المحدث المؤرّخ البارع تاج الدّين أبي طالب ابن أنجب البغدادي، المعروف بابن السّاعاتي، (...) وهو كتاب عظيم في ستّ مجلّدات، نادر الوجود، لا أعلم أنه يوجد الآن في مكتبة لا في الشّرق ولا في الغرب. ظفرت بهذا المجلّد منه في تونس عام 1340 هـ. كتبه مالكه محمد عبد الحيّ الكتانيّ الحسنيّ حمد مولاه مسعاه أمين»⁽³⁾.

إن وقوف رحلة هذه النسخة الفريدة والوحيدة (unicom) واستقرارها في الخزنة الملكية بمراكش⁽⁴⁾ مسقط رأس أحمد شوقي هو بالتأكيد أمر مثير لكنه غير غريب عن المسارات التي تدبر من خلالها الأقدار والأمر. لحد السّاعة لم يكن الأمر مجرد اتفاق أو مصادفة، ولن تكون، وإنما بقصد، لكنه قصد ماكر، قصد همس لأحمد شوقي: «ها هي نسخة من كتاب زميل

(1) علي بن نجب الساعي، الدرّ الثمين في أسماء المصنّفين، حققه وعلّق عليه أحمد شوقي بنبين، و محمد سعيد حنشي، (تونس: دار الغرب الإسلامي، 1430 هـ - 2009 م) ط 1، ص: 31.

(2) محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير الكتاني (ت 1382 هـ/1962 م)، تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب، ضبط وتعليق أحمد شوقي بنبين، و عبد القادر سعود، (الرّباط: منشورات مركز الدّراسات والأبحاث وإحياء التّراث بالرّابطة المحمدية للعلماء - سلسلة دراسات وأبحاث (13)، 1434 هـ/2013 م) ط 1، ص: 148 - 149.

(3) علي بن أنجب البغدادي، الدرّ الثمين في أسماء المصنّفين، ص: 63.

(4) علي بن أنجب البغدادي (ت 674 هـ)، المشاهد بجانب مدينة السّلام ومواقع قبور الخلفاء أئمة الإسلام، ص: 25.

لك في المهنة، وأسير كتب مثلك، قد أتينا بها إليك. وضعناها بين يديك ! فانظر ماذا أنت فاعل بها. أه وهناك نسخة أخرى من كتاب آخر لصاحبك ابحت أنت عنها». بالتأكيد لم يكن بوسع أحمد شوقي بمعية محمد سعيد إلا أن يهما بإخراج النّص الأول الدّر الثّمين وبالبحث عن نص المقابر والمشاهد لزميلهما القديم في حرفة (مهنة) لم تجمعهما في مكتبة بعينها، ولكن جمعتهما ضمن ذات المهمة وهي خدمة الكتب والعناية بها، والشّفقة عليها.

يبقى جهد المحقّقين كبيراً، ومهماً، فقد لبّنا في تحقيق مؤلّف ابن أنجب المقابر والمشاهد حولين كاملين، حولين من الاعتكاف على ضبطه والتعليق عليه⁽¹⁾. وهذا ما تلّخصه بشكل واضح الهوامش المترفة والبالغة الثراء، والتي تشرح كل شيء للقارئ، وتعقب على الأشخاص ومصير الأماكن والتحويلات التي اتخذها الزمن في حق مآثر بغداد وآثارها، بل وتجعل المتن أكثر غنى، وأكثر وضوحاً وتعبيراً، إنها الرّغبة والهوس التّحقيقي في أن يكون المحقق دقيقاً جداً مع قارئ الكتاب، لذا كان اللّجوء المتكرر إلى صنع هوامش، وربما لتوجيه ذهن القارئ، مخافة سوء الفهم منه، ومخافة عدم الدّقة التي قد تأتي على المؤلّف مرة مرة. إنهما يحاولان عبر هذه الهوامش الإشارة إلى ما لم ينتبه إليه الكاتب، أي ما نسيه، أو ما حاول هو عدم الإشارة التّامة إليه، يحددون أسماء الأماكن الجغرافية، ويدققون في حوادث التّاريخ، ويوسعون من دائرة التّعريف بالأعلام. يجترحون كُوات ليفسروا الغامض، ويفسرون حقيقة الموقف وأبعاده، ويستدركون على المؤلّف الأصلي، لا بقصد انتهاك حرمة مؤلّفه بأن ينسبوا له جزأً عن الإفصاح والتعبير وإنما لتثوير العمل وبعثه من جديد بجعله كما يشتهي له صاحبه. في مؤلّف المقابر والمشاهد تلعب الهوامش دوراً مهماً، إذ مادام كلما ابتعد الواقع أكثر، وأمسى سحيقاً وبعيداً أكثر فأكثر، وأمست حوادث هذا الواقع موعلة في طبقات التّاريخ؛ مدسوسة بين نصوص الكتب، كلما احتاج الكتاب إلى توجيهات يستحدثها الكاتب وتحديد المآثر الباقية والمندرسة أو تبيان التّغيرات التي لحقت أسماء المقابر وما لحق المشاهد والمزارات من خراب وما طرأ عليها من تبديلات وتغيرات.

2. عن جدوى الكتابة عن مساكن الموتى:

في وسط يحتفي بالموتى، ويُعلي من شأنهم، ويهيل عليهم من صفات التّقدير ومشاعر البُور الكثير، تبقى الكتابة عن المقابر والأضرحة والمزارات أمراً عادياً جداً، بل ضرورياً، فالموت يبقى تتمه لمسار وليس نهاية سيرة ولا حظراً لها، إلى درجة أن جنازة الميت تبقى مكاناً فوق العادة للمباهاة والتّباري والمباعات بين الميت وبقية زملائه الموتى، أو بينه وبين من تركهم خلفه يرتعون في الحياة، ونستحضر هنا يؤثر عن الإمام أحمد متوعداً بعض الطوائف

(1) المصدر نفسه، ص: 7.

التي كانت تحمل له العداء «بيننا وبينكم يومُ الجنائز». الجنازة هنا لا تعني أبداً أنها إغلاق تام لحساب الميت الدنيوي، ولا طياً لدفتر حساباته الشخصية، وسداً لسجل خصوماته السابقة التي لم تُحل بعد مع غرمائه الدنويين، والتي لم يقض فيها بقول فصل مع من تركهم خلفه في عالم دنياه، وإنما هي استمرار لحياته الأولى ومعاركها العنيدة التي لم تُحسم بعد، ولذات الحسابات، ما دام الموت هو أحد ظواهر حياة الفرد المستمرة معه، ف«الشخص الميت (إما) يعامل كحثة أو كرمز»⁽¹⁾، أي التراوح بين ما يجب التخلّص منه وما يجب الاحتفاظ به، فالرمزية هي ما تجعل الأحياء يثابرون في الاحتفاظ بذكريات الموتى، وتدفعهم للتمسك بأشياء الميت كاملة أو ببعضها فقط، فبعد «وفاة شوبان - مثلاً -، قام القوميون البولونيون بشق جثته لانتزاع قلبه. لقد أمموا (قَوَمَنُوا) هذه العضلة المسكينة، وقاموا بدفنها في بولونيا»⁽²⁾.

المهم دوماً أن يُحتفظ للميت بذكرى، تُنشّط ذاكرة الأحياء، ومن جهة أخرى تحمي الميت من النسيان، وتفرض ضرورة ما للنطق باسمه بين من ما تزال أساميهم في ديوان الأحياء، لذا قد تكون شاهدة قبر أو ضريح أو يكون كتاب كلهم نواباً فوق العادة، وبأثر رجعي منذ وفاة الميت ينوبون عن أي حُضور للميت، فالكتاب رجل و«رجل هو الكتاب»⁽³⁾، أحدهما ينوب عن صاحبه في وقت الغياب، وقد الاثنان يساوي النسيان فقط، والذي هو الآخر «يساوي النعاس»⁽⁴⁾، والضريح وشاهدة القبر التي تحمل عنوان الميت الأخير تبقى نائبة عن وجود الميت، تذكرنا به، خاصة إن كان من أصحاب المكارم

على الرّغم من أن عنوان الكتاب يزخر بما يدل على الموت، واستهلال مقدمته لا يحيل إلا إلى الموت⁽⁵⁾، غير أنك وأنت تستغرق في مطالعة كتاب المقابر والمشاهد تجزم أن لا مَوْتٌ هناك، وإنما الأمر يتعلق فقط ب«تبديل عوالم»⁽⁶⁾؛ عوالم لا تختلف عن عالمنا، عوالم تُشبه بعضها. إنه انتقال إلى دار القرار التي نعتقد أن نزيلها لا يحرك ساكناً، ولا يملك من

(1) ميلان كونديرا، الوصايا المغدورة: دراسات في الرواية، ترجمة معن عاقل، (دمشق: الأوائل للنشر، 2000) ص: 279.

(2) المرجع نفسه، ص: 279.

(3) خورخي لويس بورخيس، قصيدة إسرائيل، ضمن ديوان مديح الظل، ترجمة محمد أبو العطا، (سلسلة الشعر، الطبعة الأولى، القاهرة: المركز القومي للترجمة، 2011) ص: 67.

(4) مرسيا إلياد، مظاهر الأسطورة، ترجمة نهاد خياطة، (دمشق: دار كنعان، 1991) ص: 112.

(5) يقول ابن أنجب مستهلاً كتابه: «الحمد لله محيي الأموات ومميت الأحياء، الذي حكم على جميع خلقه بالفناء، فلا سبيل لمخلوق إلى الخلود والبقاء، وسوى في الموت بين الملوك والشوكة والأغنياء والفقراء، حكمة منه وعدلاً في القضاء» (المقابر والمشاهد، ص: 41).

(6) سياتل زعيم دواميش، نقلًا عن محمود درويش، خطبة «الهندي الأحمر»، ضمن ديوان أحد عشر كوكباً، (الدار البيضاء: دار توبقال) ص: 33.

أمره شيئاً، على عكس دار الدنيا التي هي منزل للحركة والابتدال في التّحرك والتّغير الدّائم والأشياء الطّائرة التي تأتي وتذهب، وإنما الأمر على العكس تماماً، فمن نظنهم أمواتاً هم الأحياء بينما، يتدخلون في كل حركاتنا، حتى أن أمكنتهم التي انزوا إليها هي الأكثر جلبة والأكثر ضجيجاً كما يشهد الكتاب، فكما للأحياء مدنٌ يسكنونها، وأسواق تروج فيها بضائعهم وتتداول فيها أموالهم، فلأموات مدنٌ وأسواق تعج بالمال والمعاملات والبضائع، لهذا قد يكون ماسينيون (1962 م) اختار عنواناً لكتابه عن أحد مقابر القاهرة اسم: مدينة⁽¹⁾ لما قد تمتاز به من شروط توّهلها لأن تكون مدينة حقيقية⁽²⁾، وبعضهم سماها حديقة⁽³⁾، فهي ليست مكاناً دائماً للحزن والوحشة وإنما هي مكان فوق العادة للتأمل بل وللكتابة⁽⁴⁾، كما هي مكان جيد للقراءة والمطالعة⁽⁵⁾.

الذي بناها اختار لها اسماً من أهم كلمات معاجم عالم الموتى اللّغوية: دار السلام، ليكون اسمها أولاً حسناً على موتاها، حيث سيتمّ تعهد عالمهم بالتشديد والتعمير وتعهد أسمائهم بالذكور في كتب التّراجم والمناقب. بشر الحافي من موقف شديد الزّهد والتّعفف دلت عليه كنيته، لخص القول عنها حينما اخترق الترف حياة أهلها: «ما ينبغي لمؤمن أن يقيم بها» ولشدة ما يروج فيها من فتن السياسة والمال والتّشديد، غير أن ابن حنبل أجاز دخولها للضرورة فقط، كما أجاز

(1) Louis Massignon, La cité des morts au Caire: Qarâfa, Darb al-Aḡmar, Institut français d'archéologie orientale, 1958.

- محمود محمد جاد، سكنى المقابر في القاهرة: إطلالة تاريخية وبنوراما ميدانية، (القاهرة: دار ماجد، 1992).

(2) مقبرة الفرافة التي ألف عنها لويس ماسينيون كتاباً كاملاً، بروي المقريري أنها كانت لها شرطة، والإقامة فيها كانت مقننة «بهدف دفن الموتى، وحراسة الأضرحة، والاهتمام بنظافتها، وبناء المقابر الجديدة، وإقامة طقوس الموت والذّفن، ورعاية بعض الفقراء وعابري السبيل والمتصوفة» (محمود جاد، الاحتفاء بالموتى في العصر الإسلامي (مصر) سكنى المقابر، مجلة أوان، العدد رقم 7 - 8 يناير 2005، ص: 210).

(3) سمير أيت أمغار، حديقة الأموات، بحث في تاريخ مقبرة الأشراف السّعديين بمراكش، (مراكش: منشورات أفاق، 2017).

(4) في المقبرة قديماً ألف أبو الفرج ابن الجوزي كتابه الموسوم بـ تقريب الطّريق الأبعد في فضل مقبرة أحمد (المقابر والمشاهد، ص: 43 (هامش))، وفي المقبرة عثر خيرى شلبي على المكان الأنسب للكتابة وهو المقبرة ذاتها (فاروق وادي، سيرة الظل؛ نصوص عن آخر هو أنت، (الأردن: المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2008) ط 1، ص: 97).

(5) في وصف علي بن أنجب الدّقيق للمقامات والأضرحة البغدادية، يهدي بالنّا إلى وجود خزانات كتب في تلك الأماكن، إلى درجة أن ينصب عليها ناظر خاص بها، فيقول عن ضريح خرب وأعيد إعمارها من جديد «وعمر ذلك الموضع مشهداً حسناً، وصار النّاس يقصدونه بالصدقة والنّدور، وصارت له خزنة لذلك، ورتب فيه ناظر يحفظ ما يأتي النّاس به». (المقابر والمشاهد، ص: 114)، ويقول في موضع آخر عن مراحل إنشاء تربة السّعيدة خاتون «وقد كملت عمارتها، فجاءت مشرفة السّناء فيه الضريح المقدّس وعليه ستارة مسبلة، والرحمة بأرجائه منزلة. والأخر فيه خزنة الكتب في مجنب الأبواب، وجعل فيها كتب تشتمل على أنواع العلوم المصنّفات، وجواهر المجموعات، التي بخطوط الأئمة الثّقات، ووقفت، وجعل ثوابها واصلها إليها، ونورا يسعى بين يديها. (المصدر نفسه، ص: 146، 145).

للمضطر أكل الميتة، لهذا غالباً ما تواتر عنها أن من وراء أسوارها يطل قرن الشيطان، ولهذا لربما لم تهناً، في تاريخها، بالاستقرار قط. دخلها من هم في أقصى الشرق فخربوها، وأحرقوا بيت حكمتها. كانت حاضرة الإسلام على الإطلاق وعاصمة الخلافة لقرون، بل وعاصمة العالم، إنها بغداد، «وأعظم حواضر الإسلام التي يعبق كل ركن منها بتاريخ أثيل، وأثر جليل، وقد صنفت كتب كثيرة في سرد تاريخها، ووصف قدرها، وتراجم علمائها وأعلامها»⁽¹⁾، وبذات الاهتمام البالغ حظي موتها «فلا يكاد يخلو كتاب في تاريخها من أخبار وروايات تتعلق بمقابرها ومشاهدها، وبمن دفن فيها من أعلام وعلماء، ووزراء وشرفاء، وخلفاء وأمراء»⁽²⁾.

في سائر محكيات كتاب المقابر والمشاهد يستنتج دوماً، عقب كل رواية ووصف لما يحدث أمام قبر أو ما يعتلج في أحد المشاهد كيف يتم تحويل ذكرى الميت إلى وجود حقيقي له، ليبقى اسماً لم تتم عملية إنفائه بشكل نهائي وتام؛ إذ يتم تحويله من قبل الأحياء من سيرة موقوفة الشغل ومحظورة العمل أو بالأحرى من «مشغول بنفسه» إلى موضوع للاشتغال، موضوع يشغل الآخرين ويحظى باهتمامهم البالغ أو لربما حتى المبالغ فيه، ليصير هذا المنتزع من باقة الباقين على قيد الحياة، موضوع احتفال واحتفاء به، وبموته، من جوقه من لم تأت الفرصة بعد لتصبيهم عضة الموت التي تسهو ولا تنسى، إنه موضوع غير عادي للتأمل ولاستفادة الدروس والعبر، ليتأكد أنه لا بد دوماً من هجرة عالم الكون والفساد والانسحاب إلى عالم آخر، وذلك كله، كنوع من الإكرام له والحداد عليه، لتتقلب فكرة انتقال الميت إلى عالم السكون والفساد إلى فكرة ممسوخة وفسادة من الأصل، إذ لا انقطاع لعمل الميت، فالحديث النبوي وإن كان يؤكد انقضاء صلاحية عمل الموتى، غير أنه يسارع ويستدرك ليستثني لحظات عمله وفعله في واقعه، «فإذا مات الإنسان انقطع عمله إلا من ثلاث»⁽³⁾. يمتد عمل الأموات في بغداد ليرهن أعمال الأحياء، وليحدد عمل ليلهم ونهارهم، وأيام أعيادهم واحتفالاتهم، وأيام نشاطهم وراحاتهم، بافتعال لربما من الأحياء، حتى ولو بدون تدخل من الموتى أنفسهم، إذ ليس لهم من الأمر شيء، ففي زمن بعيد يستعرض أبيقور ساخراً علاقته بالموت فقال: «الموت لا يعينني البتة، فهو إن وجد، لن أكون موجوداً، وإن وجدت أنا لن يكون موجوداً»، وفي زمن قريب يقول بارت: «لست مسؤولاً ولا أتحمل مسؤولية فعل (الموت). أستسلم واثقا وأنتقل بذاتي (نحو من؟ نحو الله، نحو الطبيعة ونحو الأشياء كلها، ما عدا الآخر)».

(1) المقابر والمشاهد، ص: 11.

(2) تقديم أحمد شوقي بنين ومحمد سعيد حنشي، المقابر والمشاهد، ص: 6.

(3) النووي، صحيح مسلم بشرح النووي، كتاب الوصية، باب ما يلحق الإنسان من الثواب بعد وفاته، الطبعة الأولى، (القاهرة: المطبعة المصرية بالأزهر، 1349 هـ، 1930 م)، ج: 11، ص: 85.

على الرّغم من أن الموت يبقى دوماً، كما يقول كوجيف (Alexandre Kojève)، حالة أنطولوجية ذات صبغة فردية وشخصية جداً، مادام ألا أحد يمكنه أو يقدر على أن يموت بدلاً وعوضاً عني⁽¹⁾، فلكل ميته التي تخصه، ويختص بها، (إِنَّكَ مَيِّتٌ وَإِنَّهُمْ مَيِّتُونَ)⁽²⁾، غير أن الموت هنا على طول الحكايا التي تتزاحم في كتاب المقابر والمشاهد لا تبقى مسألة بالغة الخصوصية تهم الميت نفسه أو القريبين من المعني بها الذي أسلم الرّوح لدايعها، إذ تحضر في هذا الكتاب بكل هذا الاهتمام البالغ الذي يصورها عليه مؤلف الكتاب، فلا يقف الأمر عند تجشم عناء حُضور الجنازة، وما يتبعها من «متطلبات الدفن» العادية جداً، وإنما إلى التّجرد في أعمال بالغة الجهد والتّعب، بنشيد المزارات والأضرحة، وذلك فور توديع الميت، فتبدأ الأمور سهلة بسيطة كطقس من طقوس التّوديع لتتحول إلى اقتصادات قوية وأسواق رائجة ووظائف كثيرة ومهمة⁽³⁾.

كما للحياة طقوسها، فللموت -مكمل مسيرة الحياة و طرفها النقيض- طقوسه، ولأن الفراق عزيز على الميت كما هو عزيز وصعب التحمل على من بقوا على ضفة الحياة الأخرى، كان لا بد من أيام أنس يقضيها الأحياء بجانب ميتهم؛ لذا فقد كانت تستغرق قراءة القرآن عند قبر الميت في بعض المقابر الإسلامية شهراً كاملاً «أو أكثر حسب المكانة الاجتماعية للمتوفّي». كما كان من بين هذه المظاهر أن يقيم في اليوم التالي للوفاة احتفال عظيم في القبر (...). وكان هذا الاحتفال يتكرر في اليوم الثالث للوفاة (...) كما كان يقيم في نهاية الشهر عزاء كبير (...). وكان توزيع الصدقات والأطعمة عند قبر المتوفّي يستمر طوال الشهر ترحمًا عليه⁽⁴⁾. لتتحول المقابر شيئاً فشيئاً إلى مكان يتجاوز أسواق الأحياء رواجاً وجلبة، وليقلب الأموات المعادلة بفعل من الأحياء أنفسهم، وليقلب مع حالهم قول الأحياء المتكرر عند تأفّفهم من أوجاع الحياة «إنها حياة كالموت» إلى قول آخر من جانب الموتى «إنه موت كالحياة»، فتتصهر المفارقات وترتفع المتناقضات.

بسبب رؤيا يراها النائم أو بسبب حكاية سرعان ما تتداول لتصير حقيقة، يتم عبرها بعث الميت من جديد، بتحيين ذكراه وتجديد ذكره، ويستعاد دوره الذي كان له أو الذي لم يكن له

(1) Alexandre Kojève, Introduction à la lecture de Hegel, éd.Paris, Gallimard,1947, p.55.

(2) الآية 30، سورة الزمر.

(3) تتكرر عند علي بن أنجب الصّور والأوصاف الدالة على الرّواج الاقتصادي الكبير عند المقابر فعن مقبرة باب أبرز يقول: «وهي مجمع أنيس، في ليالي الجمع وعشيّات الخميس، وبزخرف سوقها في ليالي رجب ونصف شعبان، وأيام العيدين من الزّمان، ببدائع الطرف، وطرائف التّحف، ونقل الطّراف، وهدايا خرسان والأطراف. وتشعل فيها المشاعل، ويكثر بالرجال والنساء الجمع». (المشاهد والمقابر، ص: 91).

(4) محمود جاد، الاحتفاء بالموتى في العصر الإسلامي (مصر) سكنى المقابر، ص: 212.

مطلقاً. إن الحكاية بحسب عبد الحق منصف تحيي أبطالها حتى حينما تميتهم⁽¹⁾، خاصة مع أناس يؤمنون بحرارة كبيرة بحوار الموتى، لكن بتسيير وسياسة ماهرة من الأحياء وبارادتهم، لأن الميت هنا ليس له من الأمر شيء، ليجعله بالشكل الذي نراه، أو الذي يودوننا أن نراه على الرّغم مما يحتمل من قوة إيحائية فظيعة، فـ «خطاب ما بعد الموت، الذي هو أيضاً قوة ما، في صلب هذا النّحو. من فضيلة التّقريط الرّثائي: الكتابة على القبر، أو التّأبين، ذكر الميت، شهرة الاسم بعد موت الذي يسميه. ذاكرة ما تنخرط مسبقاً، منذ أن كنا ما نزال نسميه الحياة»⁽²⁾. فالموت ليس نهاية ما انخرط فيه الميت والحي ذات مرة، بل هو محطة لرعاية الصّراع ولتحسس جوانب الأحقاد التي كانت للميت أو التي صارت عند الأحياء.

الأمر هنا يتجاوز أمر التّعظيم «لمن يقبض الأرواح»⁽³⁾، أو التّكريم لمن قبضت روحه، ويتجاوز أمره تقديم شهادة عن ميت من لدن حي، وإنما هو رفض للتّصفية التي لحقت الجسد ومخالفة لما يريده الموت، ورفض لنسيان ذكره، وتبرير مستمر من جهة أخرى لحضوره، فمن سمو النّسيان نعمة هم حاولوا فقط تبرير الخيانة القسرية لموتاهم، كما يؤكد خيرى منصور، لأن هناك من الموتى من لا نجد عوضاً عنهم بين الأحياء. وإفكّل من الأحياء والأموات يشتركون في خيانة؛ من بقوا قيد الحياة لمن فقدوا أعضاءهم، والرّحيل بالنّسبة لمن توقفت قلوبهم وأطبقوا شفاههم وأصموا آذانهم أيضاً، وليس عيونهم فقط. فالميت «الحكيم (الذي) يعلم أن الحياة تسترقه والموت يعتقه، وأن الإنسان في هذا العالم وإن طال فيه لبثه، فهو كخطفة برق لمعت في أكناف السّماء ثم خفيت، وأنه في دنياه كمبعوث إلى ثغر يحرسه وبلد يسوسه، فيراعي في ذلك ما استرعى، ويفرح ويُسّر إذا استدعي، ولا ينكأه خروجه منها»⁽⁴⁾، قد يكون هذا موقف الأحياء أيضاً من الموت، فحياة الميت عندهم تكاد تكون برقاً، لكنه برق لا يجب نسيان سناه. وموته يجب أن يبقى تمريناً للحي أمام هذه التجربة التي نساق كلنا إليها، فهو التّجربة التي «يجب علينا أن نستعد له، وذلك بتأمله، الأمر الذي سيسهل تمريناً وممارسة مفضلة وتمييزة»⁽⁵⁾.

- (1) منصف (عبد الحق). أبعاد التّجربة الصّوفية: الحب. الإنصات. الحكاية. (الدار البيضاء: أفريقيا الشرق. 2007)، ص: 286.
- (2) جاك دريدا، سياسات الصداقة، ص: 91.
- (3) أحمد القسطلاني، إرشاد الشاري إلى شرح صحيح البخاري، (القاهرة، المطبعة الكبرى الأميرية، بولاق)، ط7، ج: 5، ص: 407.
- (4) أبو القاسم الرّاعب الأصفهاني، الذّريعة إلى مكارم الشريعة، تحقيق أبو اليزيد العجمي، (المنصورة، دار الوفاء، 1987)، ط 3، ص: 335، 336.
- (5) ميشيل فوكو، تأويل النّات: دروس أقيمت في «الكوليج دو فرانس» لسنة 1981-1982؛ ترجمة وتقديم وتعليق الزواوي بغورة، (بيروت: دار الطليعة، 2011) ص: 44.

3. المقابر في يوم وليلة الإنسان البغدادي:

يختصر كتاب المقابر والمشاهد الكثير من عادات أهل بغداد، ويرصد لنا جوانب من الحياة الاجتماعية، ويصف لنا، بشكل واضح جداً، ذهنيات المجتمع البغدادي في عصره. الشيء الذي بإمكانه صياغة صورة بانورامية وواضحة عن حياة المجتمع البغدادي من ناحية تمثلاته وهواجسه وآماله، مع اتخاذ الاحتياطات الممكنة والتحفظات بإزاء منقولات الكتاب لا العقيدية⁽¹⁾ ولكن العلمية أيضاً، فأدب المناقب لا يعالج مشاكل بعيدة عن الحياة، بل هو يعالج بمشاكلها ويفيض بشكل قد يكون زائداً عن بقية أجناس الكتابة بإشكالاتها، فالمادة المناقبيية تبقى «وثائق لا غنى عنها لجوانب معينة من التاريخ، ومناجم لمواد صالحة للاستعمال التاريخي في جوانب أخرى على أساس نقد يتناول مواقعها»⁽²⁾. إن نصوص وحكايا كُتبت ابن أنجب تبقى شواهد حقيقية لذهنيات الفرد البغدادي.

من عادات البغداديين وأعرافهم التي دأبوا عليها مؤلف ابن أنجب، ووزعوا أيامهم بحسبها، هي تخصيص أيام بعينها لزيارة بعض المقابر والمشاهد، فيذكر ابن أنجب أن البغداديين كانوا يزورون «في عصر كل جمعة، وبييتون به ليلة السبت، ويعظ هناك واعظ، وقصده الناس بالنذور، وصار من جملة المشاهد المذكورة المزورة»⁽³⁾، أما قبر ابن حنبل فكانت تحيا عنده ليلة التّصف من شعبان⁽⁴⁾، وكان لمشهد عبيد الله بن محمد بن عمر بن علي بن الحسين بن علي بن أبي طالب «مبقات يزار فيه، وكان الناس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي. ويقال: «إنه أحصي في بعض الليالي وقد دخل إلى المشهد نيّف وأربعون ألف شمعة. وكان المشهد واسعاً عظيماً»⁽⁵⁾، ومن المقابر «التي كان الناس يقبلون على زيارتها أيضاً مقبرة الشونيزي الكبير إذ يقصدها الناس في كل خميس، ويكثر بها الغلبة والأنيس، وتباع هناك المأكولات، وتعدّد الأسواق الدائرات، خصوصاً في أيام الربيع إذا كثرت المياه الجارية، واخضرت الرّياض الزّاهية، واعتدل الزّمان، وطاب الأوان»⁽⁶⁾، ويذكر أن جمعاً غفيراً من أهل بغداد كانوا يذهبون إلى مقبرة باب حرب، إذ كان «يقصد هذه المقبرة في كل يوم أربعاء بالزيارة والتّعظيم جم غفير، وجمع عظيم، وفي

(1) انظر المقابر والمشاهد، ص: 20.

(2) أحمد التوفيق، التاريخ وأدب المناقب من خلال مناقب أبي يعزى، ضمن التاريخ وأدب المناقب، الرّباط: منشورات عكاظ، ص: 81.

(3) المقابر والمشاهد، ص: 110.

(4) المصدر نفسه، ص: 47.

(5) المصدر نفسه، ص: 108.

(6) المصدر نفسه، ص: 64 . 65.

ليالي المواسم كليلة رجب، ونصف شعبان، وليلة العيد، يقصدها نفر العديد، وتشعل عند قبر أحمد مائة من الشمع منضد، فيكون جمعاً محشوداً، ووقتاً مشهوداً⁽¹⁾.

يحكي أحد رواة ابن أنجب عن والده أن ضريحاً أصابه الخراب، ولعبت به أيدي اللصوص والشطار: «ثم عدت إليه في سنة ثمان عشرة وخمسة مائة فرأيت الموضع قد رمّ بخشب التوت. وكان له ميقات يُزار فيه، وكان الناس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي⁽²⁾. ثم يعقب والد الراوي، من أنه «أحصي في بعض الليالي وقد دخل إلى المشهد نيف وأربعون ألف شمعة. وكان المشهد واسعاً عظيماً⁽³⁾، في وصف لمستلزمات الزيارة، ومستتبعات الأدب مع الأضرحة، فعند قبر أحمد كانت تشعل «مائة من الشمع منضد، فيكون جمعاً محشوداً، ووقتاً مشهوداً⁽⁴⁾. وهناك من الأضرحة من يقصدها الناس مشاة وبييتون فيها⁽⁵⁾. وليس أمر الزيارات يدل في كثير من اللحظات على الحزن والشفقة وإنما يكون برغبة في الفرحة والاستجمام إذ يقول ابن أنجب عن أحد المقابر في وصف تستشف منه مشاعر الحبور والسعادة العارمة: «يكثر بها الغلبة والأئيس⁽⁶⁾»، وعن مشهد المنطقة يقول إنه «يقصدها الشيعة يوم عيد الغدير، ويكثر الناس حوله الزيارة والفرحة⁽⁷⁾».

ترتيب الزيارة، وتنظيمها أمر قد يتدخل فيها العامل الجغرافي في كثير من المرات، وقد يتقدم بسببه الولي صاحب القبر أو الصريح بحسب سابقته بين أولياء نفس الحاضرة، أو بسبب عوامل سياسية يُكرسها الساسة وتسايرها عبر العادة التي سرعان ما تصير قانوناً وتقاليد لا محيد عنها، كما هو الحال مع تنظيم زيارة أولياء مراكش، التي بسبب عوامل سياسية معينة، تم إقصاء أولياء دون أولياء، وتفضيل ولي على آخر في الزيارة، «فمن البداية يجب إقصاء الأولياء البرابرة لأن الطواف مخصص لرجال عرب، وإقصاء المشكوك في نسبهم العربي كأبي عصفور (...)، فيصير يوسف بن علي اليمني بدون منافس في محطته (...) أما أبو العباس السبتي فليس له منافس ليس في منطقته فقط، ولكن بين كل

(1) المصدر نفسه، ص: 50.

(2) المصدر نفسه، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

(4) المصدر نفسه، ص: 50.

(5) المصدر نفسه، ص: 110.

(6) المصدر نفسه، ص: 64.65.

(7) المصدر نفسه، ص: 101.

أولياء المدينة فهو حاميها الأول، ووليها المفضل من طرف الكل»⁽¹⁾. يقول الحضيكي في رحلته: «قد رتب لهم أهل مراكش مزاراً صبيحة يوم الجمعة، يخرج لزيارتهم الرجال والنساء والصبيان، ويرون لزيارتهم بركة عظيمة، وفرجاً قريباً عند نزول الشدائد بهم، وكانوا يستسقون بهم فيسقون، (...) وشوهد ذلك وعين»⁽²⁾.

رغم المخاطر التي كانت تحيق بالإنسان البغدادي، مخاطر السياسة والطبيعة فإن الأضرحة والمقابر والمشاهد عنده تغدو في كتاب المقابر والمشاهد لا مكاناً للأمل في ملاقات الموت والتّمسح بها، أو مكاناً للتعبير عن الحزن وسيادة الاستياء من فقدان من هو أولى بالحياة والوقوف إلى جانب الأحياء ومناصرتهم، ولكن يصير مصدر فرح ومقصد سياحة واستجمام كبيرين، بحيث يصير المكان المفضل للنساء والصبيان لقضاء أحسن الأوقات، إنما يبقى المتنفس الأوحده، إنه بمقدار ما قد يخترق الحزن حدث الزيارة يخرقه من جهة ثانية الفرح والحبور، فيستوي من جديد الموت وتستجد دفقات الحياة، وهذا ما عبّر عنه بشكل هو الأكثر تلخيصاً هر اقليطس بالقول: «ديونيسوس وهاديس سيّان».

ولأهمية زيارة المقابر والمشاهد في حياة الإنسان المسلم في العصر الوسيط، لا في بغداد وحدها، فقد ألفت في هذا كتب ومنظومات، فمحمد ابن الزيات ألف لأهل القاهرة مثلاً الكواكب السيارة في ترتيب الزيارة في القرافتين الكبرى والصغرى، ليكون الأمر شبيهاً بكتاب إرشاد سياحي، يتم فيه تحديد يوم الانطلاق أو ساعاته وما يجب عمله وما يجب تركه. إن الأمر انتقل إلى محاول تنظيم طقوس الاحتفاء بالموات، وبصياغة دساتير ينتظم فيها فعل وسلوك الأحياء، غير أنه قد يتم الخروج عن برنامج الزيارات هذا، فينتج من هذه الزيارات مناكر عديدة - بحسب فقهاء كل عصر - استوجبت الكثير من التّقد. يقول ابن الحاج، وهو يوجه نقده إلى عمل جاحل النساء الزائرات، يقول: «ثم انظر رحمة الله وإيّاك إلى ما قرره النساء في هذه الزيارة التي ابتدعتها لأنفسهن فإنهن جعلن لكل مشهد يوماً معلوماً في الجمعة حتى أتين على أكثر أيام الجمعة ليجدن السبيل إلى وصولهن إلى مقاصدهن الذميمة في أكثر الأيام، فجعلن يوم الاثنين للسيد الحسين رضي الله عنه، ويوم الثلاثاء والسبت للسيدة نفيسة، ويوم الخميس، والجمعة للقرافة لزيارة الشافعي وغيره لأمواتهم»⁽³⁾، ليؤكد هذا الأمر يتجاوز أن تتحكم فيه كتب مرشدة أو أرجوزات يضعها البعض، إنها الكثرة التي تلد هرجها الذي يغلب أي محاولة في التنظيم.

(1) حسن جلاب، الحركة الصوفية بمراكش وأثرها في الأدب (1)، مراكش، المطبعة والوراقة الوطنية، 1994، ص: 179.

(2) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي، الرحلة الحجازية، ضبط وتعليق عبد العالي المدبر، (الرباط، الرابطة المحمدية للعلماء، 1432هـ/2011م)، ط 1، ص: 67.

(3) أبو عبد الله محمد بن محمد بن محمد العبدي المالكي الفاسي، المدخل لابن الحاج، مكتبة دار التراث، القاهرة: ص: 269.

ويستشف من هذا النقد المتكرر أنه قد كانت للنساء الحرية التامة والكاملة في زيارة الأضرحة، إذ كانت المتنفس الكبير وربما الوحيد لهن، حتى إن هذا أثار استهجان ابن الحاج، فيقول عن جملة المنكرات التي تعرفها الزيارات: «فمن ذلك ما يفعله بعض النساء في زيارة القبور، وفي ركوبهن على الدواب في الذهاب والرجوع، وفي مس المكاري (صاحب الحمار) لهن وتحضينه للمرأة في إركابها، وإنزالها وحين مضيتها يجعل يده على فخذها، وتجعل يدها على كتفه مع أن يدها ومعصمها مكشوفان لا ستر عليهما سيّما مع ما يضاف إلى ذلك من الخواتم، والأساور من الذهب، أو الفضة، أو هما معا مع الخضاب في الغالب وتقصد مع ذلك إظهار ذلك كله»⁽¹⁾، بل والأمر خرج عن كل هذا إلى حرية أكبر مما نتوقع، تتمثل في «مشيهن بالليل مع الرجال في زيارة القبور مع كثرة الخلوات هناك وكثرة الدور المتيسرة، وكشفهن لوجوههن وغيرها حتى كأنهن مع أزواجهن خاليات في بيتهن، وينضم إلى ذلك محادثتهن مع الرجال الأجانب ومزجهن وملاعبتهن وكثرة الضحك مع الغناء في موضع الخشوع، والاعتبار، والدّل، فإن هذا الموضع أول منزل من منازل الآخرة، فهو جدير بالحزن، والخوف ضد ما يفعلونه. وقد ورد في الحديث أنه عليه الصلاة والسلام قال: «إن الله يكره لكم ثلاثاً: العبث في الصلاة، والرّفث في الصيام، والضّحك عند المقابر»، فيحق لمن مصيره إلى هذا عدم اللّهُو، واللّعب، وخروجهن على هذه الأحوال لو كان بالنهار لخيّف عليهن من المفسدة الكبرى فكيف به ليلاً، وينضاف إلى ذلك ما أحدثوه من الوعاظ على المنابر، والكراسي، والمحدثين من القصاص بين المقابر في الليالي المقمرة وغيرها، واجتماع الرجال، والنساء جميعاً مختلطين، وكذلك القراء الذين يقرؤون القرآن بالتّرجيع، والزيادة، والنقصان في كتاب الله عز وجل ورفع الأصوات الخارجة عن حد السّمت، والوقار، والتّمطيّط، والمد في غير موضعه وتخفيف المشدد وعكسه، وترتيبها على ترتيبها هنوك الغناء، والطرائق التي أحدثوها وغير ذلك مما هو معلوم مشاهد، وذلك كله ممنوع وسواء كان الزّوار رجالاً، أو نساء فكل ذلك ممنوع لما فيه من المفاسد»⁽²⁾.

4. الموتى ومنشأهم:

لا نستغرب عدم وجود فواصل بين عالم الأحياء وعالم الموتى في الخلاصات التي نخرج بها من حكايا ومنقولات كتاب المقابر والمشاهد، فتشييد العمران والإفراط فيه حد البذخ، يصير شيئاً عادياً بل ضرورياً في الأبنية التي تحوي جثامين الأولياء، وبشكل هو الأكثر دهاءً يمسخون فكرة غيابه ليجعلوها حضوراً غير عادي بالمرّة، يتغلغل وجوده داخل جماعتهم، وبشكل هو الأكثر مهابة حتى من الأحياء أنفسهم، يُبالغون في تقديره وتوقيره، بجعل بنائه

(1) المصدر نفسه، ص: 267.

(2) المصدر نفسه، ص: 268.

الذي يسكنه آية في التّشديد والتّزاويق، حتى ليبدو موت الولي بداية لأداء ضريبة له عن غيابه، فهناك ضرائب ومكوس تقدم لمن هو على قيد الحياة ساسة وولاية بشكل إجباري، وهناك ضرائب أخرى تقدم بشكل اختياري ينتقي فيه الواهب من يهبه ما جادت به نفسه من الأولياء الذين تعج بهم بغداد والمدن المسلمة، ولا ينتظر أن يوضع الولي الميت أو الشخص المهيب الذي فقد روحه في قبر عادي، في حفرة مغطاة بأتربة وعند رأسه توضع شهادة قبر تدل على هويته العلمية والأسرية، وإنما الأمر يتجاوز كل الحدود إلى التّفنن في التّشديد حد يتجاوز قصور الأحياء أنفسهم.

الموت الذي يشتهر بأنه هادم اللذات والحضارات حد الإجماع التّام حول هذا، يصير في حكايا ومرويات كتاب المقابر والمشاهد صانع وبان الحضارة وناحت ثقافة بأكملها، إذ يكون الميت سبباً مباشراً في الأبنية الضّخمة وفي المشاريع الكبيرة، وما يستتبع ذلك من نماء اقتصادي تذرّه الزّيارات، وتفرض الأخيرة معها استحداث مهن جديدة توقض حماسها وراهنيتها حاجيات الزّائرين، حيث تصير القرية البلقع المرمية في الفقار محط زيارات لا تعد؛ بسبب قبر لا يُعرف حتى صاحبه، أو بالأحرى لم تتمم كتابة اسمه على شهادة القبر ليكتمل تحديد هويّته، فقبر بسيط وقديم بقرية، سيحلبها فجأة إلى كورة عظيمة⁽¹⁾، وذلك ببساطة لأن شيخاً «بناه بالأجر والجصّ، وزوّقه، وزخرفه، وجعل على القبر ملبناً من الخشب المنقوش، وجعل عليه طاسات من فضّة، وعلق في الموضع فناديل من الصّفر، وبنى حوله رقعة واسعة، وعمل فيها سقاية، وكساه بفرش الشّتاء والصّيف»⁽²⁾، لينساق النّاس بسرعة إليه وليقصده «مشاة وركباناً في عصر كل جمعة، ويبيتون به ليلة السّبت، ويعظ هناك واعظ، وقصده النّاس بالنّذور، وصار من جملة المشاهد المذكورة المزورة»⁽³⁾. ليذكرنا ما حلّ به وبغيره من القبور التي قد لا يعرف أصحابها، لكن يعتقد في فاعليتها وبركتها، بما حلّ بقبر الشيخ مجيب رواية أم النّذور، فحتى وإن نسي اسم الميت وطرفاً من سيرته، فإنه سيستعاد ولو باسمه الناقص وسيرته غير الموجودة أصلاً أو الناقصة، فرغم ألا أحد يعرف الشيخ «مجبب»، فالقصص التي تروى عنه كثيرة لا تنتهي والنّعم التي تعيشها ساكنة قرية أم النّذور هي من بركات الرّجل، الذي لا يعرف له أصل أصلاً، غير أنه رَجُلٌ تقي وله بركات لا تحصى⁽⁴⁾.

(1) المقابر والمشاهد، ص: 110. (الهامش)

(2) المصدر نفسه، ص: 110.

(3) المصدر نفسه، ص: 110.

(4) منيف، عبد الرّحمن، أم النّذور، (الدار البيضاء: المؤسسة العربيّة للدراسات والنّشر، المركز الثّقافي العربي) الطبعة الأولى، 2005، ص: 10.

بالتأكيد إن تجاهل الموت والحياة، على حد سواء، هو لدى الولي شيء، بالطبع، غاية في الأهمية في برنامج الحياتي وفي طريقه التعبدية، فالأولياء حسب أبي الحسن المراكشي «مراقبون وقوع الأجل، والموت بين أعينهم لا يزول، هانت عليهم المصائب، لا يباليون بالدنيا أقبلت أو أدبرت، كأنهم في الدنيا عابر سبيل في كل نفس يتجهزون للرحيل»⁽¹⁾، وبالتأكيد أن أغلب أصحاب الأضرحة والمزارات والمراقد المشهورة كانوا من الأئمة الزاهدين، المفرطي الزهد والابتعاد عن نداء المتع وتغول النزوات، إنهم ممن قضوا حياتهم بعيداً عن ملذات الحياة، ماتوا بعيداً عن المتع وهاربيين منها، غير أنه سرعان ما يتم التحايل على رغباتهم الزهدية ونموذجهم الصوفي هذا، بجعل قبورهم مكاناً لم يحظوا به في حياتهم، ربما لأن «الطريق الوحيد للتوصل إلى الثراء والقوة الروحيين هو ألا يملك المرء شيئاً وأن يجعل ذاته مفتوحة و«فارغة»⁽²⁾، فحياة الميت التي سبقت موته بالإضافة إلى طريقة الميتة التي عرفتها نهايتها تصنع كاريزما خاصة به، تغير طريقة الاهتمام به، فيما أن تكون العلاقة عادية جداً كباقي الموتى الآخرين، وإلا تصير إلى ما صارت إليه في حكايا علي بن أنجب، والميتة لا تشبه أي ميتة، حتى لو شابقتها في المساوية، فحتى في يؤسها قد يجعل منها ميتة غير كريمة لاستنزاف قوتها وتبخيس قيمتها. يقول روسو: «قضى سُقراط نحبته متفلسفاً منشراحاً محاطاً بأحبائه، فمات أحلى ميتة يتمناها مخلوق. لفظ عيسى آخر أنفاسه تحت التَّنكيل والشَّتْم والازدراء ولعنة جمهور شعبه، فمات أبشع ميتة يخشاها مخلوق. يتناول سُقراط السم من يد خادم بيكي، فيباركه. يتلقى عيسى من جلاديه أفزع أشكال التَّنكيل، فيدعو بالعفو على أكثرهم قساوة. الحق هو أن سُقراط عاش عيشة ومات ميتة حكيم، في حين أن عيسى عاش عيشة ومات ميتة إله»⁽³⁾. السيد المسيح كان يعرف ما يقول، وكان يعرف ما يفعل، فهو نفسه من يقول: «من يود إنقاذ حياته سيفقدها، لكن الذي سيفقدُها بسببي سينقذها»، فمن جهته فقد حياته من أجل الآخرين. الأمر مع القبر أي المرقد الدنيوي يتعلق بوعد إلهي إذن، يقول تعالى: «تِلْكَ الدُّارُ الْآخِرَةُ نَجْعَلُهَا لِلَّذِينَ لَا يُرِيدُونَ عُلُوًّا فِي الْأَرْضِ وَلَا فَسَادًا وَالْعَاقِبَةُ لِلْمُتَّقِينَ»⁽⁴⁾، القبر مثوى الميت في الأرض هو بداية السَّكن الأخرى الموعود، لهذا يجب أن يكون بداية الثواب واستئناف للحياة الموعودة.

(1) عبد الحق البادسي، المقصد الشريف والمنزع اللطيف في التعريف بصلحاء الزيف، تحقيق سعيد أعراب، (الرباط: المطبعة الملكية، 1993-1414)، ص: 22.

(2) إيريك فروم، «التمكُّن والكيونة»، ترجمة: سببلا محمد، فكر ونقد: ثقافية شهرية، ع 3، ص: 103.

(3) جون جاك روسو، دين الفطرة، ترجمة عبد الله العروي، (الدار البيضاء: المركز الثقافي العربي، 2012)، ص: 119.120.

(4) القصص، الآية (83).

تقول فرمينا داثا بطلة الحب في زمن الكوليرا بإصرار منها على فكرتها الرّيفية جداً «أن الموتى لا ينتمون إلى أحد سوى إلى عائلاتهم»⁽¹⁾، أي أن الأبناء يفعلون بجثامين ذويهم ما يرون أنه الأصلح لأرواحهم، والأقرب لما كان يتمنونه لأنفسهم، فلا أحد يمكن أن يعرف مصلحة الميت غير أقاربه، غير أن الأمر هنا يتجاوز هذا ليصير مصير القبر بيد رجل قد لا يعرف صاحب القبر أصلاً، من قريب أو بعيد، وقد يصير مستقبله بيد رؤيا يراها رجل في أحد مناماته عنه⁽²⁾، وسرعان ما تنمو القصص عنه، ومعها تستحدث فجأة منشآت ومرافق داخله وبجانبه، لتغدو جوانبه مخطط مدينة مستقبلية أو حتى كورة كبيرة تُشد لها الرّحال وتقصدها الرّكبان. فلطالما كان قبر الولي علة مباشرة لتأسيس المدن، يبدأ الأمر قبراً صغيراً، غير معروف بالمرّة، فيصير قبّة، وبعدها ضريحاً ثم تكية متوسط القد والحال فمزاراً، فكورة عظيمة، فمدينة. فالمقابر هي عند الإنسان البغدادي تشبه تماماً البانثيون (Panthéon) عند اليونان، أو مدافن عظماء الأمة عند أيّ فرنسي، فالأعلام من أهل العلم والزّهد بالكثرة مما لا يمكن حصره في المقبرة الواحدة، لهذا يكثر عند ابن أنجب ختمه القول عن أحد المقابر «وقد دفن بها خلق كثير من الفقهاء والصّالحين والأولياء الزّاهدين»⁽³⁾، أو القول عن أحد الأضرحة «وبالقرب منه وحوله قبور جماعة من أئمة الدّين، وعلماء المسلمين، والعباد الصّالحين»⁽⁴⁾، أو قوله: «وقد دفن بها كبار العلماء وأرباب الصّلاح والزّهادة والمجاهدة والعبادة الجمّ الغفير، والعلم الكثير»⁽⁵⁾.

على الرغم من أن الدين كان «أول الأمر مانعاً من المغالاة في البنيان والإسراف فيه في غير القصد»⁽⁶⁾، فحين استأذن الناس عمر بن الخطاب «في بناء الكوفة بالحجارة وقد وقع الحريق في القصب الذي كانوا بنوا به من قبل فقال «افعلوا ولا يزيدن أحد على ثلاثة أبيات ولا تطولوا في البنيان وألزموا السنة تلمكم الدّولة»، وعهد إلى الوفد وتقدم إلى الناس أن لا يرفعوا بنياناً فوق القدر قالوا: «وما القدر؟» قال: «لا يقر بكم من السّرف ولا يخرجكم عن القصد»⁽⁷⁾، على الرغم من كل وصايا الزّهد في التّفنن في التّشييد واستقباح التّعالي في البنيان، فإنه كانت

(1) ينظر غابرييل غارسيا ماركيز، الحب في زمن الكوليرا، ترجمة صالح علماني، (بيروت: دار المدى، مكتبة نوبل، 1991)، ص: 49.

(2) المقابر والمشاهد، ص: 88.

(3) المقابر والمشاهد، ص: 72.73.

(4) المصدر نفسه، ص: 75.

(5) المصدر نفسه، ص: 91.

(6) عبد الرحمن بن خلدون، المقدمة، حققها وقدم لها وعلق عليها عبد السلام الشّاددي، (تمارة: بيت الفنون والعلوم والأداب، 2005) ج. 5، ص. 80.

(7) المصدر نفسه، ص: 80.

هناك دوماً رغبة جموحة في الالتفاف حول هذه الوصايا، خاصة مع أناس لظالماً استقبحوا هذا الفعل هم أنفسهم، ورفضوه، بل جعلوا منه شيئاً يتقربون به من حقيقة الدين، فالتشديد والبناء الجيد على قبور من يرونهم أقرب الناس إلى عالم الصّلاح ودوائر الولاية هو أمر يروونه من حقيقة الدين، وربما عن طريق طريقة الاعتناء بالتشديد يقيسون درجات إيمانهم، حتى لو أن ابن خلدون ينسب ما حصل من الاعتناء بمظاهر التّباهي بالبناء إلى بعد العهد بالدين وغلبت طبيعة الملك والترف⁽¹⁾، بالإضافة إلى «مخالطة العرب لأمة الفرس وأخذهم عنهم الصنائع والمباني ودعتهم إليها أحوال الدّعة والترف فحينئذ شيدوا المباني والمصانع.»⁽²⁾

لقد كانت الأضرحة والمشاهد والمرافد دوماً عبارة عن ملاجئ كبيرة، للفقراء والمحتاجين والأرامل وحتى عليه القوم، بشكل يمكن عدّها أقدم المنظمات غير الحكومية للتضامن الاجتماعي والتكافل المدني، يقول الحضيكي مثلاً عن أبي العباس السّبتي وضريحه: «كان رضي الله عنه يحب المساكين، ويجري عليهم حياً وميتاً، ترى الناس رجالاً ونساءً، صغاراً وكباراً، عاكفين على قبره بلا عدد، ورزقهم يأتيهم من كل ناحية في رخاء وغلاء، والناس في القحط يموتون جوعاً، والضعفاء والأرامل والعُمى على قبره يأكلون ويشربون من رزق الله تعالى، وذلك بركة الشّيخ»⁽³⁾. إن الولي باعتباره حارساً غيوراً على كل من لاذ به؛ يستحقّ -حقاً- أن يكون قبره آية معمارية تليق بالمهام التي لا يفلح غيره في إنجازها، من سقوط المطر إلى إطعام الفقير والجائع المقتر. وفي ضريحه يجد الفرد والجماعة من يواسيها، ومن يطبب على استيائها.

إلى هنا ويلاحظ أنّ الإنسان البغدادي كما كان ارتباطه في حياته بأحد الأضرحة أو المزارات يختار لنفسه مكاناً ومسكن له بعد الموت قرب أحد المقامات القبرية التي ارتبط بها في حياته، فكما كان الاحتماء به حياً يمكن الاحتماء به والالتجاء إليه في حالة الموت، بما في ذلك من يعدّه النّاس أحد الأولياء في حياته كما في مماته، فعبد الله بن أحمد بن حنبل اختار الدّفن بمقبرة باب التّبين على الدّفن قرب والده. وقال: «قد صح عندي أن بالقطيعه نبياً مدفوناً، فلأن أكون في جوار نبي أحبّ إليّ من أن أكون في جوار أبي»⁽⁴⁾. رغم ما يتداوله أهل بغداد من بركة الدّفن بجانب مدفن قبر الإمام أحمد أي والد عبد الله بن أحمد بن حنبل (ت 290 هـ). وينقل ابن أنجب عن أحدهم قوله: «لما توفيت أم ولدي رأيتها في النّوم فقلت: «إلى

(1) المصدر نفسه، ص: 80.

(2) المصدر نفسه، ص: 80.

(3) أبو عبد الله محمد بن أحمد الحضيكي، الرّحلة الحجازية، ص: 67.

(4) المصدر نفسه، ص: 50.

ما صرت؟»، قالت: «إلى كل خير. في كل ليلة دمعة ينزل على أحمد رحمة تعمننا»⁽¹⁾. ومقبرة البيمارستان العسدي كان «يرغب في الدفن فيها»⁽²⁾.

ويحدث أن يتم الانبهار بمقابر الموتى، إلى درجة أن تطلب الزوجة من زوجها أن ينشئ لها مقبرة تليق بها، وبمنزلتها عند زوجها، فخاتون زوجة الإمام الناصر ولدى زيارتها لمشهد عون ومعين ولدي علي بن أبي طالب على دجلة. لم تتمالك نفسها بأن سألت الإمام الناصر زوجها بأن يبني لها تربة هناك يدفن فيها إذا ماتت، ورغم تطيره من ذلك، فقد ألحت عليه، فما كان منه إلا إصدار أوامره بإنشاء تربة في الموضع المذكور، فـ «وقع الشروع في حفر الأساس، وجمعت الآلات من جميع الجهات، وشرع في بنائها بالجص والآجر المحكوك بعد أن دك أساسها، فجاء كالرصاص المذاب، والتحاس المسبوك، فلم يصعد بناؤها إلا مقدار أذرع يسيرة حتى توفيت في رجب من السنة المذكورة، ثم دفنت بها. وهي على هذه الصورة، ولم تخرج السنة إلا وقد كملت عمارتها، فجاءت مشرقة السناء»⁽³⁾.

وقد كانت تصرف على هذه المقابر والمرافد الأموال الطائلة، والإمكانات المادية الكبيرة فتجمع لها الآلات، ويؤتى لها بالبنايين، وينقل إليها الجص والحجارة، ويحرق لها الأجر الكثير المقدر، ويجمع لها الصناعات والفعلة⁽⁴⁾، لتصير «كجبال القفار، وعليها شرفات بطول فنائها أحسن من الحلي المخرم، والوشى المدرهم، وإزاء هذه المنشأة رواق باد له شبابيك مشرفة على دجلة وجسرها، ووراء ذلك بستان ذو روض مفوف الأزهار، ونور مثل الدرهم والدينار. فيه من أنواع الشجر والنخل ما يروق النظر، ويأتي بأنواع الثمر، وقد فرشت أرضه بالرياحين، والبهار والتسرين، فهو نزهة العيون، وفرحة القلب المحزون، فجاءت نموذج الجنان لم يعوزها سوى الحور والولدان»⁽⁵⁾. الأمر إذن يتعلق بمشاريع ضخمة وعلاقة تصرف إمكانيات الدولة وطرف صالح من تمويلات الناس.

يطيب لابن أنجب أن يُتنب في وصف سائر جوانب المزارات والمقابر من الداخل والخارج، وصفاً يحاول فيه أن يكون أكثر دقة في تحديد الأشكال والألوان وطريقة السبك والتشييد وتحديد نوع التزاويق والمكتوبات على الجدران والأبواب، فيقول عن المشهد الكاظمي المنسوب إلى موسى بن جعفر الصادق: «وعليهما ملبنان من خشب الساج حسن الصنعة،

(1) المصدر نفسه، ص: 45.

(2) المصدر نفسه، ص: 62.

(3) المصدر نفسه، ص: 145.

(4) المصدر نفسه، ص: 133.

(5) المصدر نفسه، ص: 133.

وفوقها ضبات الفضة، وطاسات الذهب، وعليهما قبتان من خشب بديعتنا الصنعة. وفي سقف الموضوع قناديل كثيرة من الذهب، والفضة، والبلور، وغير ذلك. وهو مفروش بفاجر كسوة الشتاء والصيف، وعلى حيطانه ستور الديباج والحريز، وفاخر الدبقي، وفيه الأواوين المتقابلة حسناً وبهاء، وبهجة وسناء، ويظف بالمشهد تُربُّ الأكابر والأعيان، وصدور الدول ورؤساء الزمان. وهي مبنية ببناء القصور، تضحك بالبهجة والسرور، يقصدها أهلها في أوان الزيارات، وأوقات المواسم والعبادات. وحولها دور القاطنين هناك من العلويين وغيرهم من الواردين، ويحيط بالموضع سور حصين جديد، يغلق عليه بابان من حديد. ويؤتى إلى الموضوع بالصدقات، والنذور من الذهب، والفضة، والثياب الفاخرة، واللؤلؤ، والجوهر، وأنواع الطيب، والشمع الكثير. وللمشهد نقيب، وبواب، وكتاب»⁽¹⁾.

إنها أبنية بالغة الثراء، إنها محل للقداسة، محل قد يحاول فيه بناء منزل يشبه البيوت التي في الجنة، لذا تحضر قناديل الذهب وطاسات الفضة واللآلئ والجواهر وأنواع الطيب كما يتكرر على ذكر علي بن أنجب، نعم إنها بيوت على شاكلة ما في الجنة، فبغداد نفسها اختير لها أول أمرها اسم للجنة؛ دار السلام. خاصة إذا ما علمنا أنه في هذه الفترة كان هناك من يحاول أن يبني لأتباعه لا ضريحاً أو مزاراً يشبه بيوت أهل الجنة، وإنما سعى لبناء مدينة متكاملة المرافق والمصالح على شاكلة الجنة نفسها، أو على الأقل نموذجاً مصغراً لها في الحياة الدنيا، كالتي في نصوصنا المقدسة، كما هي حالة الحسن بن الصباح مُنظر فرقة الحشاشين الإسماعيلية، وهي المدينة/ الجنة التي حكى لنا عنها «ماركو بولو» من أن الحسن كان يود من خلالها أن يعطي لمريديه صورة مصغرة عن الجنة الكبرى، إذ أجرى بها أنهار عسل ولبن مصفى، وجعل فيها جوارى وحدائق معروشة وغير معروشة، حتى تهون أمامهم الحياة، وتصير عملياتهم الفدائية طريقاً نحو الجنة.

المشاهد والمقابر هنا في كتاب ابن أنجب بتزاويقها وأوانيتها الخزفية والفضية، وأفرشة وأغطية الأضرحة الشتوية والصيفية تعبير من جهة أعمق عن تلاوين المعتقدات والنحل المختلفة التي ميزت بغداد، والطرف المختلفة والعديدة في التعبير عن التعلق بالأسماء والشخص المؤثرة في الحياة اليومية للبغداديين، ليصير كل حجرٍ في مشهد أو ضريح أو مرقد هو في الحقيقة صفحة من صفحات الفكر وهواجس الذهنية البغدادية وأساطيرها المؤسسة لليومي والمعيش، وشفرة لتطور فنها وسبباً لتفسير هذا التطور، كما تبقى صفحة قد تضم مجموع معارف الإنسان العراقي المختلفة من البناء حتى الشعر مروراً بالمعتقد والأعراف والتقاليد الموروثة الشفهي، فالأشكال التعبيرية المختلفة الموصوفة من لدن ابن أنجب من الزركشات المزهوة إنما يشيع من خلالها من نظام ووحدة هو بالقدر ما يشع في أعماقها من

(1) المصدر نفسه، ص: 97، 98.

الاختلاف السّائد آنذاك، إذ الأمر يشبه تماماً جذع الشّجرة ثابت الذي لا يتغير، والأوراق لا لون موحد لها.

5. حتى مساكن الأموات يلحقها الخراب!:

يُعنون العلامة عبد الرحمن بن خلدون أحد فصول مقدمته بـ «في أن المباني التي كانت تختطها العرب يسرع إليها الخراب إلا في الأقل»⁽¹⁾، والسّبب في ذلك - بحسب - قاضي المالكية في مصر هو كون «البدواة والبُعد عن الصّنائع» اللّتين تطبعان طبع العربي، إلى جانب قلة مراعاة العربي «لحسن الاختيار في اختطاط المدن (...) في المكان وطيب الهواء. والمياه والمزارع والمراعي»⁽²⁾، فبالنتفاوت في هذا «تتفاوت جودة المصر ورياءته من حيث العمران الطبيعي والعرب بمعزل عن هذا وإنما يراعون مراعي إبلهم خاصة لا يبالون بالماء طاب أو خبت ولا قل أو كثر ولا يسألون عن زكاء المزارع والمنابت والأهوية لانتقالهم في الأرض ونقلهم الحبوب من البلد البعيد (...) وانظر لما اختطوا الكوفة والبصرة والقيروان كيف لم يراعوا في اختطها إلا مراعي إبلهم وما يقرب من القفر ومسالك الظعن فكانت بعيدة عن الوضع الطبيعي للمدن»⁽³⁾.

يصدر ابن خلدون حكمه فيما سبق عن المدن التي يشيّد بها الأحياء، الأضرحة هي الأخرى يحكمها ما يحكم المدن العامرة من قوانين العمران والخراب بنزوح أهلها المفاجئ عنها، ونسيانها، لتصير رسوماً وأطلاً بلقياً بعدما كانت عامرة بالحجاج والزائرين، فبينما يسترسل ابن أنجب في وصف المشهد الكاظمي المنسوب إلى موسى بن جعفر الصّادق، فإنه يختم أوصافه المتفنتة عن جمال هذا المزار بأن يقول «وكان هذا المشهد قد وقع فيه حريق في الأيام الظاهرية وذلك في ليلة تاسع المحرم سنة ثلاث وعشرين وستمائة، فأتى على القبتين والصّريحين المقدسين»⁽⁴⁾، إذ لم يكن تاريخ تلك الأبنية القدسية بتاريخ بناء وتشبيد فقط، بل وتاريخ هدم وسرقة وخراب ونيران تأتي على القباب والأعمدة والأفرشة؛ إما بافتعال فاعل يكون، أو بما يطرأ عادة من مصائب الدّهر التي لا يعرف المرء من أين تنسل ولا من أين تأتي؟

حتى وإن كان ضريح الولي مكاناً للتوقير والتّقدير الكبير، غير أنه سرعان ما نجد من لا يجد في نفسه ذلك الاحترام المرجو للأموات ولمجالهم الحيوي، فيسرق ما وهبه الأحياء لميتهم،

(1) ابن خلدون، المقدمة، ج: 5، ص: 82.

(2) المصدر نفسه، ص: 82.

(3) المصدر نفسه، ج: 5، ص: 82.

(4) المقابر والمشاهد، ص: 98.

وكان السارق/ الحي الأولى بالإحسان من الولي/ الميت، إذ لا مجال للمفاضلة بين من ارتقى في حضان عالم الفساد أمام من هم على قيد الحياة. ينقل ابن أنجب عما حكا له والده عن أحد الأضرحة إذ يقول: «شاهدت أنا الضريح قد قلع أكثره، وسُرق، وأخذت الضبات، وكان وزن كل ضبة عشرة أرتال، والضريح ساج، والضبات شبة، فغمني ذلك»⁽¹⁾. ويزيد فيقول: «وقد خرب ذلك الموضع، وعفا أثره حتى لا يوجد في هذا الموضع إلى الشط غير هذا المشهد المذكور، وهو خراب»⁽²⁾، لكن تتم عملية إصلاحه والتصالح معه من جديد فيقول: «ثم عدت إليه في سنة ثمان عشرة وخمسائة فرأيت الموضع قد رم بخشب التوت. وكان له ميقات يزار فيه، وكان الناس يستعدون لزيارته كما يستعدون لزيارة سلمان الفارسي»⁽³⁾. وقد يصير موقع الضريح أو المقبرة إصطبلًا للخيل والجنود⁽⁴⁾ أو تلاً تلقى فيه الأتربة التي يأتي بها الناس من دورهم وأفئبتهم⁽⁵⁾.

وكما تأتي على مساكن الأحياء لحظات يفقدون فيها راحتهم باجتراء بعض الأحياء عليهم، فالمقابر سرعان ما يأتي عليها هي الأخرى ما يدخل الفساد على هناءة صاحب القبر وإزعاج جثته التي دخلت دورة الإفساد، وهو ما نبهت عليه نصوص الشريعة، فلا يجوز حتى الاقتراب من قبور الموتى، بما في ذلك الجلوس عليها، احتراماً لساكن القبر. يقول عليه الصلاة والسلام: «لأن يجلس أحدكم على جمرة فتحرق ثيابه فتخلص إلى جلده، خير له من أن يجلس على قبر»⁽⁶⁾، ليصير الاجتراء على ممتلكات الميت! أمراً هو الأكثر اجتراء ووقاحة، فالقبر تبقى له قدسيته في المخيال الجمعي وكذا الديني، قدسية لا يمكن معها من الاجتراء على حرمة. القدسية التي يجب أن تكون لراحة الميت وهدأته التي لا يجب الإضرار بها أو الإخلال بشروطها. يروي ابن رشد عن عمرو بن حزم قال: «رأني رسول الله صلى الله عليه وسلم- على قبر»، فقال: «انزل عن القبر، لا تؤذي صاحب القبر، ولا يؤذيك»⁽⁷⁾، ويقول التعارجي عن القبر «الذي وجد تزليجه متساويا مع الأرض قديماً كان أو حادثاً فلا يمسه بوجه، لأن الميت يتأذى بما يتأذى به الحي»⁽⁸⁾.

(1) المصدر نفسه، ص: 108.

(2) المصدر نفسه، ص: 108.

(3) المصدر نفسه، ص: 108.

(4) المصدر نفسه، ص: 85. 80.

(5) المصدر نفسه، ص: 86.

(6) رواه مسلم.

(7) ابن رشد، أبو الوليد، بدآية المجتهد، باب الدفن، ج: 1، ص: 559.

(8) التعارجي، الإعلام، ج: 8، ص: 267.

لا يعطينا ابن أنجب بالضبط أسباب الخراب والسّرقات التي لحقت المشاهد والأضرحة، إذ أسباب الخراب الذي يلحق مساكنهم تدخل فيه أسباب كثيرة من بينها قد يكون القبر في الأصل مكاناً وساحة أخرى لتصريف الصّراع الدنيوي والرّغبات في التّصفية والاستحواذ التّام على الأرض ومعها السّاحة التّقافية والعقيدية التي كان الميت إما طرفاً فيها، أو تحول بعد موته إلى طرف مهم فيها وذلك بالرغم منه، فكما أن هناك مجالاً للتّباري المعرفي بين أصحاب أنواع معرفية وعقيدية متعددة في الحياة يستمر هذا التّباري حتى بعد الموت، فالصّراع الخفي الذي كان الصوفي الكبير بشر الحافي والفقير الحنبلي ابن حنبل بنفسه يمتد إلى المقبرة، فعوض أن يبقى اسم بشر بن الحارث الحافي اسماً لها، يزاح ويعوض باسم نده ابن حنبل فور دفن الأخير فيها⁽¹⁾، فسرعان ما ينتقل مشعل الصّراع إلى الأتباع ممن بقوا على الحياة، فيتطور إلى محاولة الفتك بقبر الميت، ليمحو أي شاهد ودليل يدل عليه.

هذا الإضرار بمساكن الموتى، هو ما دفع كما تقول كثير من حكايا كتاب المقابر والمشاهد إلى نقل جثامين الأموات إلى مناطق يستشف منها أنها الأكثر أماناً والأسلم، وغالباً ما تكون جثامين لأمرء، فالخوف على هؤلاء يكون أكبر في وسط سياسي امتاز بالاضطراب الدائم وعدم الاستقرار، فنجد أنه غالباً ما يتم نقل جثامينهم إلى الرّصافة التي يصفها ابن أنجب بما يجعلها في نظر القارئ أكثر أماناً وحرصاً، فهي عظمة الرّقعة، سامقة البنيان⁽²⁾، «لها دهليز مديد، وعقد عال، وباب من حديد. يشتمل على حجر ومقاصير محكمة التقدير، فهي أبهى الأبنية سماءً وأفاهها منظرًا وعلوًا»⁽³⁾.

الملاحظ أنه لا يتم توجيه الميت مباشرة نحو قبره، أي إلى الرّصافة مدفون أرباب الدولة والأمرء وإنما يتم تأخير ذلك إلى شهور بل وإلى أعوام، فنجد مرارا في كتاب المقابر والمشاهد منقول ابن أنجب بدفن أول في دار الخلافة يليه دفن ثان في الرّصافة، من مثل «ودفن بدار الخلافة وعمره ثمان وثلاثون سنة وثمانية أشهر وتسعة أيام (...) ثم نقل في ليلة رجب من السنة المذكورة إلى التّربة الشّريفة بالرّصافة، وضحيه ظاهر هناك»⁽⁴⁾، وقوله «ودفن أولاً بدار الخلافة؛ وهو أول من دفن بها، ثم نقل في ليلة الجمعة لخمس خلون من ذي القعدة سنة ثلاث وعشرين وأربعمائة، وكان عمره ستاً وثمانين سنة وعشرة أشهر، ولم يبلغ هذا القدر في الخلافة أحد قبله»⁽⁵⁾، ويشير ابن أنجب إلى أن عملية النّقل كانت غالباً ما تتم ليلاً، واللّيل غالباً

(1) المقابر والمشاهد، ص: 44.

(2) المقابر والمشاهد، ص: 116.

(3) المصدر نفسه، ص: 116. 117.

(4) المصدر نفسه، ص: 123. 124.

(5) المصدر نفسه، ص: 122.

ما يستدعي السرية والسّتر عن الخلق، فالإمام العباس أحمد المستظهر بالله حين وفاته «دفن بدار الخلافة وعمره واحد وأربعون سنة وستة أشهر وتسعة أيام، وخلافته أربع وعشرون سنة وثلاثة أشهر وواحد وعشرون يوماً. ثم نقل تابوته الشريف ليلة شهر رمضان إلى التربة الشريفة بالرصافة فُدفن بها ليلاً، وضريحه المقدس ظاهر هناك⁽¹⁾. وكذا الأمر بالنسبة للإمام المقتفي «دفن بدار الخلافة، وكان عمره ستين سنة إلاّ أياماً، وخلافته أربعاً وعشرين سنة، وثلاثة أشهر، وأربعة عشر يوماً. ثم نقل تابوته المقدس ليلة الأربعاء ثالث عشر ربيع الأول من سنة ست وخمسين وخمسمائة. فدفن بالتربة الشريفة بالرصافة وضريحه هناك ظاهر»⁽²⁾.

على سبيل الختم:

لهذا، بل لكل هذا، لم يكن الموت حدثاً بسيطاً وعادياً، قد يأتي على روح الواحد منا وعلى جسده، يُختتم به برنامج حياة الأدمي ومساره، كما هي الولادة، تماماً، تعلن عن بدايته. الموت بقدر ما هو من جهة رغبة فيزيقية أو ميتافيزيقية غير مفهومة بشكل واضح أسبابها لتشر الدمار في الجسد البشري، بقدر ما يتحول لدى القريبين من الميت إلى محاولة مضادة لأجل ترميم هذا الخراب، بخلق نوع من الاتزان الذي أمسى مفتقداً مع حالة الموت، وتعويض حالة اللاحضور بأفعال يتداخل فيها الجمالي بالعائدي، لتتحول الموت بما هو نهاية وحدث طبيعى عادى جداً إلى بداية وحدث ثقافى غير عادى بالمرّة والمطلق، والالتفاف عليه ليتحول من مصدر قلق واضطراب إلى منبع بركة ونعم لا تنتهى، بل ومكمن طمأنينة وطمأننة من الأموات أنفسهم لمن هم على قيد الحياة، والمجد لله الحيّ الذي لا يفنى ولا يموت.

(1) المصدر نفسه، ص: 124.

(2) المصدر نفسه، ص: 125.

قائمة المصادر والمراجع:

أولاً المراجع العربية:

- ابن أنجب، الساعي (2008). المشاهد بجانب مدينة السلام ومواضع قبور الخلفاء أئمة الإسلام. منشورات الخزانة الحسنية. التنبكي، أحمد بابا (2013). نيل الابتهاج بتطريز الديباج (تحرير وتقديم حماد الله ولد السالم). دار الكتب العلمية. السبتي، عياض بن موسى بن عياض (1983). ترتيب المدارك وتقريب المسالك لمعرفة أعلام مذهب مالك (ج1، ط2). وزارة الأوقاف والشؤون الإسلامية.
- الأصفهاني، أبو القاسم الرّاعب (1987). الذريعة إلى مكارم الشريعة (تحقيق أبو البزید العجمي، ط3). دار الوفا.
- ابن عربي، محي الدين (د.ت.). الفتوحات المكية (تحقيق وتقديم عثمان يحيى و تصدير ومراجعة إبراهيم مذكور). الهيئة المصرية العامة للكتاب.
- القسطلاني، أحمد (د.ت.). إرشاد الساري إلى شرح صحيح البخاري (ج5، ط7). المطبعة الكبرى الأميرية.
- الكتاني، محمد بن عبد الحي بن عبد الكبير (2013). تاريخ المكتبات الإسلامية ومن ألف في الكتب. منشورات مركز الدراسات والأبحاث وإحياء التراث بالرابطة المحمدية للعلماء. سلسلة دراسات وأبحاث، 13.
- أمغار، سمير أيت (2017). حديقة الأموات، بحث في تاريخ مقبرة الأشراف السعديين بمراكش. منشورات آفاق.
- بورخيس، خورخي لويس (2011). قصيدة إسرائيل، ضمن ديوان مديح الظل (ترجمة محمد أبو العطا). سلسلة الشعر، المركز القومي للترجمة.
- حمدان، أحمد العَلَمي (1991). في الاستقبال التقدي لكتاب الإحياء ضمن البنية والحجة: قراءات سيميائية وإستيمولوجية لمظاهر من الفكر العربي. إفريقيا الشرق.

الترجمة الصوتية لمصادر ومراجع اللغة العربية: Romanization Arabic References:

- ibna 'anajbun al-sā'iyya 2008). almushāhida bijānibi madīnati al-sullāmi wamawāḍi'ī qubūrī
- alkhulafā'ī "immata al'islāmi manshūrātu alkhizānati alḥusniyyati
- al-tanbakiyyu 'aḥamida bābā (2013). nīla alibtiḥāju bitaḥriẓi al-dyabāji taḥrīrun wataqdymu ḥamāhu al-lha waladi al-sālimi dāra alkutubi al'ilmiyyati
- al-sabtiyyu tīāḍu bn mūsā bn tīāḍu (1983). tartība almadāriki wataqrybi almasāliki lima'rifati 'al'lāami madhhabi mālika j ṭ wizārata al'awqāfi wa-al-shu'ūni al'islāmiyyati
- al-'shfāny 'abū alqāsīmi al-rāghibi (1987). al-dhary'ata 'ilā makārimi al-sharī'ati taḥqīqun 'abū alyazidu al'ajamiyya ṭ dāra alwafā
- ibna 'arabiyyin muḥḥiyyay al-dayyina d t). alfutūḥātu almakkiyyatu taḥqīqun wataqdymu 'uthmāni yaḥyā wa taḥḍīrun wamurāja'atu 'ibrāhīm madkūrīn alhay'ata almišriyyata al'āmmata lil-kitābi
- alqastallāniyyu 'aḥamida d t). 'irshādu al-sāriyyi 'ilā sharḥi ṣaḥīḥi albukhāriyyi j ṭ almiṭba'ata alkubrā al'amiriyyata alkattāniyyu muḥammada bn 'abdi alḥayyi bn 'abdi al-kabīri (2013). tārikha almaktabāti al'islāmiyyati waman 'allafa fi alkutubi manshūrātu markazi al-dirāsāti wa-al-'bhāthi wa'ihyā'i al-turāthi bi-al-rābiṭati almuḥammadiyyati lil-'ulamā'i silslatu dirāsatin wa'bhāthin 13.

murāji'un

'mghār samīra 'yt 2017). ḥadyqata al'amwāti baḥṭhun fī tārikhi maqbarati al'ashrāfi al-sa'diina bimarrākishin manshūrātu 'āfāqin

bwrkhys khūrkhī lūsi 2011). qaṣīdata 'isrā'yl ḡimna dīūāni madīhi al-zilli tarjamata muḥammada 'abū il'aṭā silslata al-shī'ri almarkaza alqawmiyya lil-tarjamati

ḥamdāni 'aḥamida al'alamiyyu 1991). fī alistiqbāli al-naqdiyyi likitābi al'ihyā'i ḡimna albinyati wa-al-ḥujjati qirā'ātu sīmīā'iyatu w'ibstymwlwjyah limaḏāhiri mina alfikri al'arabiyyi 'ifrīqyā al-sharqi

ثانياً المراجع الأجنبية:

Massignon, L. (1958). *La cité des morts au Caire: Qarāfa, Darb al-Ahmar*. Institut français d'archéologie orientale.

The Relationship of the Arab Society with Death and the Dead “In the Medieval Era as Described in Cemeteries and Mausoleums beside the City of Peace”

Mohammed Salah Bouchtalla⁽¹⁾

Abstract:

Cemeteries and Shrines in our ancient history, not only in the history of Baghdad, but even in some of their remnants, may constitute the most important icon to understand historical stages, know mentalities and comprehend the emergence of religious and social traditions that are still present till modern days . Tombs, burial shrines and mausoleums in a society that glorifies the dead and fears death at the same time , are monuments that stand in the witness’s position with the historian, directing and providing him with so many hypotheses, and justifying the outcome of his research when he finds in the deserted land a lot of ruins, then concludes that the country was inhabited in the past. But if he does not see anything, he cannot reach any result, as the incident occurs and gets embodied in a witness. When the historian finds a witness, he inevitably recalls the incident from which he abstracts his questions, and from which he searches for new evidences that may help him to know everything about the incident. Cemeteries, shrines, and books of merits remain living witnesses of any historical process, and are clues for the understanding of the present too. The book Cemeteries and Mausoleums beside the City of Peace, by Ali Bin Angab, is not only a painting that depicts the life of the Baghdadi citizen, but also transmits, precisely, the daily disorders of the Arab society in the Medieval ages in relationship to death, the dead and their shrines. This does not concern simple stories, but rather daily livelihood that hides concerns, feelings and a whole culture, which make the book of Ali bin Angab worthy of more than a pause, and more than a reading from multiple perspectives.

Keywords: Death, Cemeteries, Baghdad, Funerals.

(1) Faculty of Arts and Humanities Science - Cadi Ayyad University (Marrakesh - Morocco)
bmsalah83@yahoo.fr